

على شاطئ العمر

أجلس الآن على شاطئ العمر

وحدى وسط برد الشتاء

أتأمل زرقة البحر

وامتداده اللانهائي

وفجأة تلوح سفينة من بعيد

تعبر في إيقاع بطئ

لكنها ما تلبث أن تختفي

فى نهاية الأفق المتراعى ..

* □ *

حولى رمال بيضاء

تتخللها بقايا أخشاب مسودّة

وبعض أكياس البلاستيك

وزجاجات المياه الفارغة

التي تركها المصطافون

قبل مغادرتهم

ورغم أن البرودة تلف المكان

فإننى أحتّمى منها

بوضع كفىّ فى جيوب معطفى السميك

وأرتدى طاقية صوف

تغطي الوجه والأذنين .

خلفى بعض المبانى

التي لم يعد بها أحد من السكان

وهناك شباك أو أكثر

تركه أصحابه مفتوحا

فانكسر زجاجه

وراحت الريح تعصف به

فيصدر صوتا مزعجا

وهو الصوت الوحيد

الذى يمكننى أن أسمعه

[]

لماذا تلح علىَّ بشدة

صور أصدقاء طفولتي ؟

بعضهم بالأسماء

والكثير منهم بالوجوه فقط

لقد عشت معهم أجمل فترات حياتي

ورغم رذالة القلة منهم

كانوا جميعا ودودين

ويتضاحكون طوال الوقت

وعندما كبرنا وتفرقت بنا السبل

كنت لا أسمع عن وفاة أحدهم

إلا بعد فترة طويلة

فأترجّم عليه

ولما أجد من أعزّيه فيه

فأنكفئ على حزني

وأبكي بدون دموع !

* □ *

وكان الحب الأول

كالبدر المكمّل في ليلة ظلماء

أضاء المكان كله من حولي

وجعلني أرى ما لم يستطع غيري

أن يراه ..

أحببت المزارع الذي تسكن فيه

وبيتها الذي كان يتوسطه

والشرفة التي كانت تطل منها

والمدرسة التي كانت تذهب إليها

ولم أكن أتخيل أبدا

أن السعادة التي تغمرني

سوف تنتزع مني بتلك القسوة

عندما علمت أنها ستتزوج

وتغادر مع زوجها إلى مدينة أخرى!

* □ *

ثم جاءت سنوات الجامعة

فكانت هي الدواء لمريض

كان متوقد العقل ،

لكنه ممزق القلب !

وبالتدريج بدأ الجرح يندمل

والقلب يعود إلى الخفقان

حين شاهدت إحدى الزميلات

من ذوات العيون الخضراء

تضع وردة في شعرها

ومجموعة من الكتب فوق صدرها

وكانت هي المحضن الثاني

الذي ضمنى إلى حذانه

واستطاع أن يعبر بي

سنوات الجامعة الأربعة

حتى غابت هي الأخرى

فى نفس الطريق الأول !

ومن نعم الله على الإنسان

أن العمل يأتى إليه

فى الوقت المناسب تماما

فيشغله عن همومه الشخصية

وأحزانه الخاصة جدا

ويلقى به فى أمواج الحياة اليومية

وهى مليئة بطعم الملح والسكر

تومض له أحيانا

فتخطف بصره من الفرحة

وفى أحيان أخرى

تطفئ من حوله كل المصابيح

وعندئذ يجد نفسه مضطرا

لعبور طريق طويل

به أشجار عالية

لكنها غير موزقة !

وبينما يسير الإنسان مجهدا فى طريقه

يتعرض للكثير من السهام

التي يطلقها عليه الحاقدون ،

والمنافسون ، والأشرار ..

وبعض هذه السهام تصيب جسده

فتترك فيها جروحا لا تلتئم

إلا بعد وقت طويل

وبعضها الآخر - وهي الأقسى -

ترشق روحه

وتستقر في قلبه

وهي لا تقتله

لكنها تؤلمه بشدة

وتظل مكسورة فيه

مثل الرصاصة التي يقرر الأطباء

عدم نزعها

فيعيش بها الإنسان طوال عمره !

* □ *

وكما قيل □ بحق

الناس كائنات مدنية

يتأثر بعضها ببعض

ويستمع بعضهم لنصائح بعض

وفى لحظة

يجد الإنسان أنهم على حق

حين يلومونه على عدم الزواج

والواقع أن الزواج ضرورة :

نفسية واجتماعية

وهو المشغلة الكبرى

التي يتقاسم فيها الفرد حياته

مع شخص آخر

والغريب أن الزوج لا يشعر خلاله

بلحظات السعادة المركزة

إلما بعد أن ﻻ تزول

أما المأساة الكبرى

فهي أن تموت المزوجة

الأصغر سنا

قبل زوجها الأكبر سنا !

* ﻻ *

يتدأشى ضوء النهار

وتسقط شمس المغيب فى البحر

ويحل ظلام الليل

فتزداد برودة الشاطئ

وأحس بأن المعطف السميك

الذى أتدثر به

لم يعد يكفى لسريان المدفء فى أطرافى

أنهض متحاملا على جسدى

وقدماى تنغرسان

ثم تتحرران بصعوبة

من رمل الشاطئ المبتل

والملى بالقطع الخشبية السوداء

وأكياس البلاستيك

وزجاجات المياه الفارغة

التي تركها المصطافون ، وغادروا

ويظل السؤال الذى يشغلنى :

لماذا أنا وحدي الذي بقيت

في هذا الشتاء

على هذا الشاطئ !